

أدب الرحلة بين الاستكشاف الجغرافي والتحليل الأنثروبولوجي للثقافات الإنسانية،

مقاربة سوسيوثقافية في كتاب "جزائري في الأندلس" لسفيان مقنين

Travel Literature Between Geographical Exploration and Anthropological Analysis of Human Cultures: A Socio-Cultural Approach in the Book "An Algerian in Andalusia" by Sofiane Moknine.

*- حليلة قاجوج

*- مخبر البحث في الدراسات الأدبية واللغوية والتعليمية والترجمة

*- جامعة محمد الصديق بن يحيى – جيجل- الجزائر

* halima.kadjoudj@univ-jijel.dz

تاريخ القبول: 2024/11/15

تاريخ الإرسال: 2024/07/12

الملخص: تركز هذه الورقة البحثية على تحليل التفاعل المزدوج بين الاستكشاف الجغرافي والتحليل الأنثروبولوجي للثقافات المختلفة من خلال أدبيات الرحلة المعاصرة. وتهدف إلى استكشاف كيفية تصوير كتاب "جزائري في الأندلس" للتباينات الثقافية والاجتماعية بين الجزائر والدول الغربية وتأثير ذلك على الهوية الفردية للرحالة الكاتب. ويكون ذلك عبر استغلال أدوات المقاربة السوسيوثقافية، يكشف البحث عن تأثير التفاعلات الثقافية على إعادة تشكيل الهوية الأنثروبولوجية للذات الرحالة، كما يتغيا تقديم رؤى عميقة حول كيفية تأثير الاحتكاك الاجتماعي بين الأنا العربية والآخر الغربي على إدراك معنى الهوية الفردية والانتماء الثقافي. الكلمات المفتاحية: الاستكشاف الجغرافي، التحليل الأنثروبولوجي، أدب الرحلة، المقاربة السوسيو ثقافية.

Abstract:

This research paper focuses on analyzing the dual interaction between geographical exploration and anthropological analysis of different cultures through contemporary travel literature. It aims to explore how the book "An Algerian In Andalusia" portrays the cultural and social disparities between Algeria and Western countries and its impact on the Individual identity of the traveling writer. This Is achieved by employing socio-cultural approaches. Through this approach, the research reveals the impact of cultural interactions on reshaping the anthropological identity of the traveler. It also seeks to provide deep insights into how social encounters between the Arab self and the Western other influence the perception of individual identity and cultural belonging..

Keywords: Geographical exploration, Anthropological analysis, Travel literature, Socio-cultural approach.

مدخل:

يعدّ أدب الرحلة من المجالات الأدبية التي تتجاوز حدود السرد والوصف لتصل إلى أبعاد أعمق تمس فهم الثقافات الإنسانية المختلفة وتحليلها. ومن خلال المزج بين الاستكشاف الجغرافي والتحليل الأنثروبولوجي، يظهر أدب الرحلة كأداة قوية للتعبير عن التفاعلات الثقافية والإنسانية التي يعيشها الكاتب خلال تجواله في أماكن جديدة. ويعد كتاب "جزائري في الأندلس" لسفيان مقنين مثلاً حياً على هذا النوع من الأدب، إذ يجمع بين وصف الجغرافيا واستكشافها وبين الغوص في تفاصيل الثقافات والتاريخ المحلي. إذ يعكس هذا الكتاب تجربة فريدة للكاتب، الذي يقدم من خلال رحلته إلى الأندلس رؤية متعددة الأبعاد تتجاوز مجرد وصف المعالم إلى تحليل الممارسات الثقافية والظواهر الاجتماعية التي يواجهها.

إن ما يجعل هذا العمل الأدبي جديرًا بالدراسة والتحليل هو توظيف مقنين لأدب الرحلة كوسيلة لتقديم قراءة أنثروبولوجية غنية، تتجاوز مجرد الاستكشاف البصري للمكان إلى فهم أعماقه الثقافية والاجتماعية. فالنص الأدبي لا يقتصر على كونه سردًا للتجربة الشخصية للحالة، بل يمتد ليكون تحليلًا دقيقًا للعادات والقيم التي تعكس هوية المكان وساكنته. من هنا، ينبثق سؤال مهم: كيف نجح مقنين في تحويل جولته في الأندلس إلى رحلة في عوالم الثقافة والأنثروبولوجيا؟ وكيف وظف الأدب لتقديم رؤى جديدة وعميقة تتمحور حول الآخر المختلف في نقاط ثقافية متعددة؟

من خلال دراسة هذا الكتاب، نسعى لفهم الكيفية التي يعتمد عليها الكاتب في تقديم تجربته الشخصية كرحالة، وتقديم رؤى ثقافية تُثري الفهم السوسيولوجي والأنثروبولوجي للأندلس في سياقها التاريخي والاجتماعي. كما يتناول البحث أهمية أدب الرحلة كجسر يصل بين الأدب والعلوم الإنسانية الأخرى، كونه يوفر مادة غنية للتحليل الثقافي والتاريخي، ويطرح تساؤلات حول الذات والآخر، والكيفية التي تتشكل بها هوية المكان من خلال تفاعل الناس فيه.

انطلاقاً من هذا المنظور السوسيوثقافي، يمكن للبحث أن يُقدم إضافة نوعية في مجال دراسات أدب الرحلة، إذ يعزز الفهم لكيفية استخدام هذا النوع من الأدب كوسيلة

لفهم الاختلاف بين الثقافات من خلال تجربة السفر. ويظل أدب الرحلة في النهاية شاهداً على تعقيدات التجربة الإنسانية وسعيها الدائم لفهم ذاتها من خلال الآخر، مما يجعله مجالاً خصباً للبحث والدراسة في تقاطع الأدب والأنثروبولوجيا.

1. أدب الرحلة (حدود نظرية):

عُرف الإنسان العربي منذ القديم بكونه رحالة، يدفعه البحث الدؤوب عن الماء والكلأ إلى السفر أميالا بعيدة لأجل تحقيق استقراره المادي، وإيجاد منفذ يضمن له سيورته نسله وبقائه، فكان يجوب الأرض ضارباً في أعماقها، باحثاً عن الحقيقة في الآخر المختلف عنه ديناً وثقافة، فالإنسان حسب شوقي ضيف «ولد راحلاً، وإن أعجزته الرحلة، تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال، ونجد ذلك ماثلاً في الأساطير الأولى، كما نجده ماثلاً في الحروب والفتوح القديمة»¹، حيث النقوش والرسومات تعبر عن إبداع الإنسان وسعيه في النفوذ والسيطرة، مما يثبت عراقية فعل الرحلة الذي يعد من «أهم المصادر المشكلة للمعرفة والموطدة للعلاقات الإنسانية بين الشعوب»²، فمن خلالها استطاع الإنسان امتلاك زمام المعرفة وإدراك اختلافه وأهميته، وما اكتمل له ذلك إلا بمغادرة الأوطان نحو الآخر، على أن «ثمار الرحلة لا تتوقف عند التعارف أو صقل الشخصية أو كشف المجهول من طبائع الشعوب، لكنها توجد بالمكاسب العلمية والأدبية التي قد يتعذر حصرها؛ خاصة إذا كان الرحالة متمتعاً بقوة الملاحظة وشهوة التطلع ويقظة الحواس، وحب المحاوراة والرغبة في التحصيل والحرص على التدوين والتسجيل»³، وهذا ما يؤدي بالطبع إلى توسيع المعرفة وتعميمها، عبر توثيق ما تجود به قريحة الرحالة من علوم مكتسبة ومعلومات جديدة حول مختلف المجتمعات وطريقة تعايشها مع الغريب والمختلف.

وقد ظهر نتيجة لذلك ما يسميه النقاد "أدب الرحلة" كوسيلة لكتابة ما يراه الرحالة خلال سفره نحو المكان الهدف وحتى عودته إلى بيئته المحلية، مستنجداً بمكتسباته القبلية حول تلك البلدان، وما اختزنه الذاكرة من أقوال ومشاهد، يدونها في مذكرات وكتب خاصة، لتأكيد رغبته في إيصال ما رآه للمتلقي، ووصف ما شاهده من غرائب كونية، دفعته إلى التأمل في عظيم المخلوقات وجميل المصنوعات مما لم يجد لها أشباهاً في بلاده، وبذلك يغري المتلقي ويدفعه إلى أعمال ملكة الخيال لديه، عن طريق إغوائه الدائم بما جدّ من أساليب لغوية تدفع به دفعا نحو تتبع مواطن الجمال في الوصف والتعليقات. وعليه

سنحاول التركيز فيما يأتي على تقديم تعريفات نقدية لأدب الرحلة، يركز كلُّ منها على جانبٍ يراه الناقد مُهماً وركناً أساسياً لا بدّ منه للإحاطة بمعالم هذا الجنس الهجين، متبعين منهجية خاصة، تبرز في شكل تصنيفات لأهم المعايير التي يجب تواجدها في نص ما حتى نطلق عليه مصطلح "أدب الرحلة".

يتكون هذا المصطلح من كلمتين، أولهما "الأدب"، وهو عند النقاد «علم يشمل أصول فنّ الكتابة. ويُعنى بالآثار الخطيّة، النثرية، والشعرية. وهو المعبر عن حالة المُجتمع البشريّ، والمُبين بدقّة وأمانة عن العواطف التي تُعتمَل في نفوس شُعْب، أو جيل من النَّاس. أو أهل حضارة من الحضارات. موضوعه وصف الطبيعة في جميع مظاهرها. وفي معناها المطلق، في أعماق الإنسان. وخارج نفسه، بحيث أنّه يكشف عن المشاعر من أفراح، وآلام، ويصوّر الأخيلة والأحلام، وكلّ ما يمرّ في الأذهان من الخواطر. من غاياته أن يكون مُصدراً من مصادر المُتعة المُرتبطة بمصير الإنسان. وقضاياها الاجتماعية الكبرى، فيؤثّر فيها، ويغنيها بعناصره الفنيّة»⁴، فتجتمع الجمالية والواقعية جنباً إلى جنب، تحقيقاً لغاية معينة، يتكبد الأديب عناء الوصول إليها من خلال ما جادت به قريحته من كلمات جميلة، ومعاني عميقة، وأساليب منمقة. ويعد الأدب جزءاً أساسياً من تراث الإنسانية، فهو العاكس لثقافة الشعوب وتاريخها وقيمها، إذ يساعد على فهم العواطف والتجارب الإنسانية، ويعزز التفاهم والتعاطف بين البشر، كما يلهم ويثري الحياة الفكرية والعاطفية للأفراد، ويسهم إضافةً إلى ذلك في بناء الهوية الثقافية للمجتمعات.

أما بخصوص الكلمة الثانية؛ فيورد شعيب حليفي في كتابه "الرحلة في الأدب العربيّ التجنّس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل" ثلاثة أسباب صعبت مهمة تحديد وصياغة مفهوم لها، بيّنها كالتالي:⁵

- غياب تعريفات دقيقة، سواء عند الرحالة القدماء أو عند اللغويين العرب.
- وجود نصوص رحليه كثيرة ثرية ومتنوعة، الأمر الذي يصعب معه تحديد مفهوم جامع تلتقي حوله كل الأنواع الرحلية.
- انفتاح النص الرحلي على عناصر أخرى متحركة تحضر أو تختفي بدرجات متفاوتة بين النصوص.

ولكن عند تتبع المفاهيم النقدية التي حاولت الإمام بمصطلح "أدب الرحلة" كما جاء في كتب الرحالة الأوائل، واستتباعا لما جدّ في هذا المجال من الكتابة في العصر الحديث، نلاحظ تركيزا عميقا على استجلاء مواطن الحركة والوصف، باعتبارهما الركيزة الأساسية التي من خلالها يمكننا إدراج هذا المصطلح ضمن خانة الفنون النثرية، رغم ما يحتويه هذا الجنس الهجين من مكتسبات ومعارف مختلفة تنتسب إلى علوم أخرى متاخمة، وعند تفحص المعاجم الأدبية العربية يتضح ذلك الاتجاه الذي يحاول الانتصار للجانب الأدبي والفني للرحلة، باعتبارها «مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباع المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، وتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا في آن واحد»⁶، فالرحلة إذن حسب هذا الترسيم وثيقة أدبية مكتوبة، تشرح حياة الرحالة الكاتب وما جرى له خلالها من أحداث ومواقف، بتسليط الضوء على رسم انطباعاته المختلفة اتجاه ما يراه من عجائب المخلوقات، وغرائب الموجودات، وتدوين ذلك كله في مذكرات بعد عودته إلى وطنه، واستعداده لعملية الاسترجاع الذهني الذي يصحب عملية الكتابة والتدوين.

ولقد لقي أدب الرحلة تهميشا نقديا في العصر الحديث، نظرا لطبيعته الفسيفسائية، التي تجعل منه مادة هلامية، تجمع بين تخصصات مختلفة، وبالتالي لم يحظ «بموقع ذي أهمية في تاريخ الأنواع الأدبية العربية، حيث يغيب التأريخ له في كتب التراث، ولعل دوام هاجس التصنيف والمفهوم إلى يومنا هذا أكبر دليل على ذلك، فلعل وجود أدب الرحلة كملتقى الأجناس الأدبية والمعارف والعلوم كان حائلا تعثرت به نوايا تحديد وتجسيد أطره كشكل أدبي، حيث نجده يتسع بمعطياته المختلفة لينتمي إلى دوائر معرفية متعددة كالتاريخ والسير والطراجم... إلخ، مما يقلل من أدبيته بالقياس إلى أشكال الأدب الأخرى التي استطاعت أن تجد لها مكانا تحت شمس الأدب والنقد»⁷، ولعل ذلك يرجع في الأساس إلى اعتماد كل جنس على خصائص محددة، تكون لصيقة به حد اعتبارها جزءا مميزا له دون غيره من الأجناس، وهذا ما لا نجده في أدب الرحلة.

ولكنه رغم ذلك يعد «الشكل الوحيد الذي استطاع أن يكون في أكثر من موقع، ويقبض على المتخيل الجانح في فداحة العجيب والغريب، وعلى الواقعي الهش والصلب في

آن؛ فهو يخترق كل الأشكال من أجل أن يرسم مسلسلاً سيرياً ويحقق المشاهدات المرسومة بالدهشة والتعجب، ويرصد بشكل واضح أو ملتبس صورة الأنا الجمعية أو الذات الفردية من جهة وصورة الآخر من جهة ثانية»⁸، فهو جنس جامع لكل ما هو مفيد وموسوعي، نجده متوغلاً في ثقافة الآخر، يرصد المختلف والمغاير عن طريق الاستعانة بالتاريخ والوثائق الرسمية والمشاهد، بما يجعله وثيقة تاريخية لفترات زمنية معينة، تملأ الفجوات وتكشف الأنساق الثقافية المضمرة، من خلال رسم العادات والتقاليد التي تفتخر بها أمة من الأمم، وتعد سمة مميزة لها.

وبالتالي فإن أدب الرحلة لا ينتسب إلى أي فن من الفنون، فهو «شكل أدبي هجين ينماز بتعدد أوجهه وتمظهراته إلى حد أنه يمكن القول، إنه جنس متكامل يحطّم قانون صفاء النوع، وذلك بإدماجه أنماطاً خطابية متنوعة من حيث الأشكال والمحتويات»⁹، إذ نجده مندساً في كتب الجغرافيا والتاريخ، وحتى الأنثروبولوجيا في شكل وثائق توصيفية للمدن والمسالك، إضافة إلى احتضانه مختلف الخطابات الأدبية كالشعر والقصص وال نوادر، فهو جامع الفنون في جنس أدبي ثري بالتعبيرات الإبداعية المشوقة، التي تجذب القارئ وتدعوه إلى السفر نحو تلك العوالم المختلفة لمعرفة أخبارها والتزود بالمعلومات الكافية عنها.

2. أدب الرحلة والاستكشاف الجغرافي:

الجغرافيا هي فرع من العلوم الطبيعية، تدرس الأرض ومكوناتها والعلاقات بينها وبين الإنسان. ويشمل هذا العلم دراسة الظواهر الطبيعية مثل الجبال والبحار والأنهار والتضاريس المختلفة، بالإضافة إلى العناصر البشرية مثل الثقافات وعدد السكان والاقتصاد المحلي والعالمي. كما يهتم بفهم التنوع الطبيعي والثقافي للأرض وكيفية تأثيرها على الحياة البشرية، فهو بذلك يبحث في مجالات متعددة، ولكنه يركز «على مناطق الاتصال والتفاعل بين اليابس والبحر والهواء التي تكون إقليم الحياة»¹⁰، فالجغرافيا إذن لا تدرس العناصر الطبيعية في معزل عن بعضها، بل تركز على كيفية تفاعل هذه العناصر معاً وتأثيرها على البيئة والمجتمع البشري في آن واحد. ويعد هذا العلم من أقدم العلوم المعروفة عند الإنسان، حيث قام هذا الأخير بدراسة وفهم الأرض ومحيطها منذ بداية إدراكه لسر الظواهر الطبيعية ونواميسها، ويظهر ذلك جلياً في التطور الملحوظ في طريقة تحليل الظواهر ودراستها انتقالاتاً من المعتقدات الدينية والأسطورية إلى الفلسفات الطبيعية ثم

المحاولات العلمية المبكرة، مما مَهّد إلى ظهور تقنيات متطورة في اكتشاف العالم المجهول كالخرائط والمؤشرات الجغرافية التي أسهمت بشكل كبير في توثيق المعرفة وتوجيه الرحلات العلمية والتجارية في ذلك الوقت من الزمان. وبهذا بدأت الكتب الجغرافية تأخذ شكلها كأدوات معرفية مهمة، تمنح معلومات طريفة عن البلدان وتضاريسها.

وعند النظر في التسمية الخاصة بهذا العلم نستحضر الأسماء العديدة التي ذكرها الرحالة القدماء في عناوين كتبهم، والتي تشير في عمومها إلى هدف واحد، هو تتبع مواطن الاختلاف والتباين بين الحضارات الإنسانية في جوانبها الثلاثة (المادة/ الروح/ الحالة)، ويمكننا تدعيم هذا الرأي بإيراد قول نقدي يجمع صاحبه بين بلاغة الانتقاء اللفظي الخاص بأدب الرحلة وبين أصول العلم المادي الخاص بعلم الجغرافيا، إذ يقول صاحبه: «أطلق العرب أسماء عديدة على جوانب الفكر الجغرافي منها: علم تقويم البلدان، علم المسالك والممالك، صورة الأرض، جغرافيا، صور الأقاليم، علم البرود (جمع البريد)، علم عجائب البلاد، علم البلدان، علم الأطوال والأعراض، علم الأنواء (المناخ)، وعلم الهيئة (جغرافيا فلكية)، واستخدم الجغرافيون العرب لفظ (جغرافيا) للدلالة على كتاب بطليموس، وقد فسّرت كلمة جغرافيا بأنها (قِطْع الأرض)»¹¹، وهذا القول يؤكد تلك العلاقة بين الجغرافيا وأدب الرحلة، فعند النظر إلى عناوين الكتب المدرجة نلاحظ تشاركا معنويا بينها، وهذا يحيل إلى عدم التمييز بادئ الأمر بين هذين العلمين، لأن أدب الرحلة جاء في صورته الأولى عبارة عن تقارير علمية بخصوص الأقاليم والمسالك، ثم ما لبث أن تحول إلى رواية مطولة أو سيرة ذاتية تصف حياة الرحالة خلال تجواله بين مختلف المحطات بأسلوب ذي صبغة أدبية خالصة.

تزامنا مع ذلك التحول اتبع الرحالة الجغرافيون في تصوير مختلف المشاهد «طريقة ممتعة في وصف عالمهم والعوالم المحيطة بهم، إذ عنوا بالحديث عن عادات الأمم والشعوب وطباعها وما بديارها من آثار وعجائب وقصّوا ما عندها من أساطير وخُرافات. وبذلك أصبحت كتبهم الجغرافية كتبًا أدبية، تعتمد على المشاهدة وحكاية ما رآه الجغرافي تحت عينيه وسمعه بأذنه، وهي من هذه الناحية أقرب إلى أن تكون أدب رحلات منها إلى أن تكون كتبًا جغرافية بالمعنى الذي نفهمه الآن»¹²، إنّ العلاقة بين الجغرافيا وأدب الرحلة تتجلى بوضوح في النقطة التي يشير إليها هذا القول، فالجغرافيون من خلال دمجهم

للوصف الأدبي مع البحث الجغرافي، أنتجوا أعمالاً تجمع بين العلم والأدب، مما يجعلها جذابة وغنية بالمعلومات من عدة جوانب.

ويرجع ذلك في الأساس إلى الأسلوب القصصي الذي يلجأ إليه الجغرافي في سرده لمختلف المعلومات التي اكتسبها أثناء احتكاكه بمختلف الأقوام والأجناس البشرية، إذ ينتقل بين أخبار تاريخية ومشاهدات عينية يرويها عن نفسه وما أبصر في الممالك القريبة والبعيدة، فيرضي بذلك حاسة الخيال لدى القارئ، الذي يجد نفسه أمام كم هائل من المبالغات نتيجة التركيز على الغريب والعجيب من المشاهد التي يصادفها أثناء تجواله بين مختلف المدن والأقاليم، وهي معلومات رحالة يصف ما يشاهده وصفا دقيقا، إذ ينقل إلينا البلدة التي يصفها «بكل ما فيها من أبنية وأسواق وحمامات ومساجد ومطاعم وملابس وعادات»¹³، إضافة إلى تقديم معلومات قيمة حول الأعداد والمساحات والمناخ الخاص بكل إقليم، وهذا يجتمع الرحالة والجغرافي جنباً إلى جنب لتفسير الظواهر الطبيعية، ودراسة السطح الأرضي وتحليل توزيع السكان والموارد على الكوكب، وإنشاء تقارير علمية تزيد في إثراء المعرفة. وغالبا ما يتم تقديم تلك المعلومات في زي أدبي يغري القارئ ويشده إلى استشعار مواطن الجمال في النصوص الجغرافية ذات البعد الأدبي الخالص.

من صور التعالق أيضا استعانة أدب الرحلة بالوصف الجغرافي لتقديم صورة حية وواقعية للمناطق التي يزورها الرحالة؛ إذ يعزز هذا الوصف فهمنا للبيئات الطبيعية والجغرافية وتأثيرها على الحضارات والثقافات المحلية. على سبيل المثال، يمكن للرحالة أن يصف الجمال الخلاب للمناظر الطبيعية، مثل الجبال والأنهار والغابات، ويوضح كيفية تأثيرها على حياة السكان المحليين. بالإضافة إلى ذلك، يستطيع كاتب الرحلة أن يكشف عن تفاصيل جغرافية محددة حول المواقع التي يتم زيارتها، مثل المعالم الطبيعية والتاريخية والثقافية. ويمكن لهذه المعلومات أن تساعد في توجيه القراء في رحلاتهم الخاصة أو حتى تلمهم لاستكشاف مناطق جديدة. علاوة على ذلك، يمكن لأدب الرحلة أن يلعب دوراً مهماً في نقل المعرفة الجغرافية وتعزيز الوعي بأهمية البيئة والتنوع الثقافي، مثلاً يعلّق مقنين على مناخ مدينة تابيرناس قائلا: «ما إن خرجنا من أمريكا حتى أصبحت المناظر على اليمين والشمال مجرد جبال جرداء ووديان جافة وتلال مقفرة تعطيك إحساساً غريباً أنك تتجه جنوباً في بلاد الأم، مع أنك غادرت شمالها منذ ثمان وأربعين ساعة. إنها صحراء تابيرناس

القاحلة التي تبعد عن شمال أمريكا بثلاثين كيلومترا والتي تعتبر الصحراء الوحيدة في القارة الأوروبية التي تمتد على مساحة 280 كيلومترا مربعا وهي محمية طبيعية منذ 1989»¹⁴ فهذا الرحالة أثناء وصفه لإقليم هذه البلاد تقلّد مهنة الجغرافي الذي يتتبع مواطن التغير المناخي خلال الفصول الأربعة، وهذا ديدن جميع الرحالة في كتبهم الرحلية التي تتناول بالدراسة حياة المدن وتاريخها.

إنّ الانتقال من الجغرافيا إلى أدب الرحلة يمكن أن يكون انتقالا سلسا وطبيعيا، نظرا لأن كلا الجنسين يتداخلان بشكل كبير، فالجغرافيا تركز على دراسة الأرض، وتوزيع الأماكن والمساحات، والخصائص الفيزيائية للمناطق، بينما يعبر أدب الرحلة عن تجارب الأفراد في استكشاف هذه الأماكن، وينقل تفاصيلها وثقافتها من خلال القصص والنصوص التعبيرية. بشكل مماثل يمكن أن يبدأ الكاتب أو القارئ المهتم بالجغرافيا بقراءة كتب أدب الرحلة التي تتناول الأماكن التي درسها أو يرغب في استكشافها. كما يمكنه أيضا كتابة مقالات أو قصص تستند إلى رحلاته الشخصية، مع التركيز على وصف الأماكن والتجارب الثقافية المختلفة. وندعم هذه العلاقة الدلالية بإيراد تصدير أدبي استهل به الرحالة كتابه والذي جاء فيه ما يلي: «سبق لي أن مررت بإسبانيا في رحلة خاطفة قبل خمس سنوات ولم تضح في رأسي فكرة أن أزورها مرة ثانية إلا بعد أن اقتربت منها جغرافيا باستقراري في وهران (أن تكون في العاصمة الجزائرية، فذلك يعني أنك أشبه بشمال المتوسط بالنسبة لك لفرنسا) واقترت مني وجدانيا عبر عدد من الكتب التي قرأتها، لكنّه جدير بالزيارة على الأقل من الناحية السياحية وهو الغرض من السفر في النهاية»¹⁵ ويؤكد صاحب الكتاب في هذا التصدير على تلك العلاقة بين أدب الرحلة والجغرافيا من خلال الجمع بين التوثيق التاريخي والمعرفة الجغرافية والثراء الأدبي مما يجعله عملا ذا قيمة مستدامة.

وكنتيجة لما تم قوله يُعد الوصف الجغرافي أحد أعمدة أدب الرحلة، حيث يندمج فيه الحسّ الإنساني بتجليات الطبيعة والمكان، ليصوغ لنا مشهداً حياً يُثري التجربة القرائية ويُعمّق الإحساس بالزمان والمكان. إذ لا يتوقف هذا الوصف عند حدود نقل تفاصيل البيئة الجغرافية من جبالٍ ووديانٍ وأنهارٍ، بل يتعداها إلى تفاصيل الحياة اليومية والمعمارية، فيصبح المكان ليس فقط إطاراً للأحداث بل فاعلاً فيها. ومن خلال هذا الوصف، ينقل الكاتب رؤيته للعالم، وينسج العلاقة المعقدة بين الإنسان والمكان، حيث يُصبح المكان مرآة

تعكس ذاتية الكاتب وتحولاته النفسية. فالوصف الجغرافي في أدب الرحلة هو محاولة لاستنطاق الأمكنة، وإضفاء حياة خاصة عليها، تجعلها كائنات نابضة بالتاريخ والحضارة، وكأنها تحمل في طياتها أسراراً تنتظر من يكتشفها ويبعثها من جديد.

أما في الأدب الجزائري، فتتخذ الأندلس موقعاً خاصاً في الوجدان الثقافي، حيث تتجلى كرمزٍ للحضارة الإسلامية التي ازدهرت على أرض أوروبا قبل أن تتلاشى تحت وطأة التغيرات التاريخية. فالأندلس هنا ليست مجرد مكان جغرافي، بل هي صورة ذهنية متجذرة في الذاكرة الجمعية، ومضربٌ مثل للجمال الضائع والمدينة الفاضلة التي أضحت أثراً بعد عين. وهذا ما تجلى واضحاً في كتاب "جزائري في الأندلس" لسفيان مقنين، إذ نجد هذا التلاقي بين الوصف الجغرافي والتأمل في الهوية والتاريخ. فالأندلس في هذا الكتاب هي فضاءٌ للحوار بين الماضي والحاضر، بين الذات والمكان، بين الحلم والواقع. وبهذه المشاعر يحمل الزائر الجزائري في هذا السياق شوقاً إلى تلك الأرض التي ارتبطت في مخيلته بثنائية الجمال والحضارة، تلك الأرض التي تبدو بعيدة وقريبة في آنٍ واحد.

يُبرع مقنين في وصفه الجغرافي للأندلس، حيث يتجاوز الوصف الميكانيكي للمكان ليغوص في أعماق التفاصيل، مقدماً لنا مشاهد نابضة بالحياة. إذ يرسم بفرشاة الكلمات لوحاتٍ للمدن الأندلسية، من غرناطة بإطلالاتها الساحرة على جبال سيرا نيفادا، إلى إشبيلية التي تفيض بعبق التاريخ. ولا يكتفي بالحديث عن معالمها المعمارية، بل ينسج في كلماته ما يشبه الموسيقى البصرية، حيث تمتاز العمارة الإسلامية وما تبقى من مآذن وأبراج وقصورٍ بروح الطبيعة الأندلسية التي تُعانق السماء بجبالها وتنساب بين يديها الأنهار والوديان. فيخلق بذلك مشهداً يجمع بين الماضي والحاضر، ويتمكن من نقل القارئ إلى عالمٍ تتداخل فيه طبقات الزمن، عالمٍ يعيش فيه التاريخ في تفاصيل المكان الحاضرة، كأنها رحلة في الزمن بقدر ما هي رحلة في المكان.

وفي النهاية، يتجاوز الوصف الجغرافي في "جزائري في الأندلس" البعد السطحي للمكان ليصبح أداةً لفهم أعمق للإرث الثقافي والحضاري. الأندلس هنا ليست مجرد تضاريس أو معالم، بل هي كيان حيّ نابض بالذكريات والأحاسيس، ومكانٌ يستعيد فيه الكاتب شيئاً من ذاته، بل يستعيد هويته ضائعة في ماضٍها وحاضرة في وجدانها. عبر الوصف، يتحول المكان إلى كائنٍ حي، مكانٌ يتنفس بالتاريخ ويحيا بالأدب، فيغدو مساحةً

للتأمل في الهوية وفي تعقيدات الانتماء. تصبح رحلة الجزائري في الأندلس محاولة لاكتشاف الذات، حيث يتجلى الوصف الجغرافي كحوار بين الإنسان والمكان، بين الزمان والحاضر، فيمتزج فيه الواقعي بالأسطوري، والشخصي بالجماعي.

3. أدب الرحلة والتحليل الأنثربولوجي:

يشكل أدب الرحلة تقاطعا غنيا بين العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، حيث يتناول تجارب الأفراد والجماعات في تنقلاتهم عبر الجغرافيا والثقافات المختلفة، ويعتبر هذا الأدب وفق هذا الأساس نافذة مثلى لفهم التحولات الاجتماعية والتاريخية والثقافية، وتقديم تصور نقدي للعلاقات الإنسانية وتأثيراتها المتبادلة على الفرد والمجتمع. واستكمالا لهذه الفكرة، يعد أدب الرحلة مصدرا لا غنى عنه في الدراسات السوسيولوجية، حيث يعكس بوضوح التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في دولة أو موقع جغرافي معين. ويرجع ذلك في الأساس إلى البنية السردية الغنية والمعقدة التي يتمتع بها هذا الجنس الأدبي، حيث تتيح لنا التعرف على الزمان والمكان من خلال عين الكاتب الذي يقوم بعملية توثيقية وتفسيرية لما يراه ويشعر به، وتتسم هذه الكتابات عادة بالتعددية الصوتية، حيث تمتزج تجارب الكاتب الشخصية برؤيته النقدية للواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه. ويعد هذا التعدد الصوتي من سمات الأدب السردى ما بعد الحداثي، حيث تذوب الحدود بين الذات والآخر، ويصبح النص مجالا لتفاعل الأصوات المختلفة والمتناقضة.

يمكن كذلك النظر إلى أدب الرحلة كمرآة تعكس التفاعلات الاجتماعية والثقافية، وهو ما يجعله مادة دسمة لعلم الاجتماع، حيث تتجلى في هذه النصوص ديناميات السلطة، والهيمنة، والاندماج، فضلا عن الصراعات الثقافية والهوياتية التي يعاني منها الفرد أثناء احتكاكه مع الآخر المختلف. وتعتبر الرحلات التي يوثقها الكتاب مجالا لتفكيك هذه البنى الاجتماعية ومسألة الأنماط الثقافية المهيمنة، مما يساهم في تقديم فهم أعمق للظواهر الاجتماعية المتعددة، هذا لأن وظيفة أدب الرحلات تتمحور في تصوير مظاهر الحضارة والتقدم في مختلف البلدان التي قصدها الرحالة، حيث يلقي الضوء «على أحوال المعيشة والعادات والتقاليد والأعياد والأعراس والأزياء، والمآتم، وأصناف الأطعمة والأغذية، وغيرها حيث أخذ الرحالة يعقدون مقارنات عدّة لاستجلاء أوجه الشبه أو الاختلاف بين مظاهر

التّلاقى والتفاعل في الجوانب الاجتماعية والدينية والثقافية والفكرية بين مختلف البلدان التي زاروها»¹⁶.

وفي سياق التفكير النقدي المعاصر، يمكن تحليل أدب الرحلة باستخدام منهجيات ونظريات مختلفة تمتد بصلة مباشرة إلى علم الاجتماع مثل النقد ما بعد الكولونيالي، الذي يتيح لنا فهم الكيفية التي يتم من خلالها تمثيل الثقافات المستعمرة وتصور الآخر في أدب الرحلات. كما يسمح لنا بالتحقيق في الطريقة التي ينظر بها الرحالة إلى الشعوب والأماكن التي يزورونها، وكيفية انعكاس هذا التصور على الأفكار والأنماط الثقافية السائدة في زمنهم. ومن خلال هذا المنظور، يمكننا تحليل النصوص الرحلية وتفكيك الصور النمطية والاستعارات التي يستخدمها الرحالة؛ عبر فحص الطرق التي يستخدم بها الرحالة لغتهم ووصفهم لتأكيد التفوق الثقافي للغرب وتقليل قيمة الثقافات الأخرى. كما يمكن أن يساعدنا في الكشف عن الأصوات المقاومة والبديلة التي تتحدى هذه التمثيلات النمطية وتحاول إعادة سرد الحكايات من منظور مختلف.

يمكن أيضا استخدام النقد النسوي لفحص دور الجندر في تجارب الرحلة وكيفية تأثيره على سرديات السفر. ويتجلى ذلك واضحا في التصريحات الأدبية التي تعلق على التجارب الشخصية والسياقية للرحالة المسافرين. فالنساء اللواتي يردن الانتقال من بيئة إلى بيئة أخرى قد يواجهن تجارب متعددة بناءً على الجنس في المجتمعات والثقافات المختلفة. فعلى سبيل المثال، قد تكون بعض الأماكن أكثر أو أقل أماناً للنساء، مما يؤثر على تجربتهن وروايتهن. بالإضافة إلى ذلك، قد تواجه النساء قيوداً أكبر في حركتهن بسبب توقعات المجتمع والأدوار الجندرية التقليدية، مما يؤثر على أنواع الرحلات التي يمكن القيام بها والطرق التي يسافرن بها. هذه القيود يمكن أن تؤدي إلى تجارب فريدة للنساء تختلف عن تلك التي يمر بها الرجال، وقد تجلى ذلك في تشكيل «مجموعة متنوعة من النظريات الاجتماعية التي يوحدتها الالتزام بأهداف حركة المرأة والتحرر من الأبنية والممارسات الاجتماعية التي يهيمن عليها الرجل»¹⁷، ويمكن ربط هذا القول بأدب الرحلة من خلال التركيز على كيفية تصوير الرحلات في الأدب النسوي والطرق التي يمكن أن تعكس أو تتحدى الهياكل والممارسات الاجتماعية التي يهيمن عليها الرجل.

في إطار تحديد العلاقة الوطيدة بين أدب الرحلة وعلم الاجتماع، ينبغي أن نتناول هذا الموضوع من منظور متعدد الأبعاد. فأدب الرحلة، بوصفه نوعاً من الكتابة الوثائقية، يمكن اعتباره مرآة عاكسة للظواهر الاجتماعية والثقافية التي يشهدها المؤلف أثناء ترحاله في المكان المستهدف. وبالتالي، يشكل هذا الأدب مادة خصبة لدراسة علم الاجتماع في سياقاته المختلفة. من زاوية أخرى، يمكن قراءة أدب الرحلة من منظور سوسيولوجي، بالنظر إلى كيفية تشكيل الرحالة لهويتهم الذاتية والجمعية من خلال التفاعل مع الآخر وتمثيله. فالرحلة هنا تصبح وسيلة لاكتشاف الذات والعالم المحيط، وصولاً إلى بناء الهويات الفردية والجماعية. وفي هذا الإطار، يتسنى لنا تطبيق مقاربات نقدية معاصرة كنظرية ما بعد الكولونيالية ونظرية التلقي وسوسيولوجيا الثقافة. علاوة على ذلك، يمكن قراءة أدب الرحلة من منظور نقدي آخر، يتمثل في دراسة تأثير السياق الاجتماعي والثقافي على إنتاج وتلقي هذا الأدب. فالرحالة ليسوا بمعزل عن السياقات التي ينتمون إليها، بل إن انتماءاتهم الطبقية والجنسية والعرقية تنعكس على رؤاهم وخطاباتهم. وفي المقابل، يؤثر هذا الأدب في إعادة إنتاج وتشكيل هذه السياقات الاجتماعية.

يشكل أدب الرحلة وفق هذا الطرح سجلاً حيويًا وتفصيليًا للواقع الاجتماعي والثقافي في مختلف الأزمنة والأماكن، مما يجعله وثيقة سوسيولوجية فريدة من نوعها، إذ يمكن لهذه النصوص أن توفر للباحثين في علم الاجتماع نافذة غنية لفهم العادات والتقاليد واللباس ومنطق التفكير السائد في المجتمعات المختلفة، وكيفية تشكل الخطابات الثقافية وتفاعلها مع السياقات التاريخية والجغرافية المتنوعة.

• العادات والتقاليد:

تعكس نصوص أدب الرحلة مجموعة واسعة من العادات والتقاليد الاجتماعية التي تميز كل مجتمع، فمن خلال ملاحظة وتوثيق السلوكيات اليومية، الطقوس الاحتفالية، والأعياد الدينية، يستطيع أدب الرحلة تقديم صورة حية عن القيم والمعايير الاجتماعية، فعلى سبيل المثال، يصف الرحالة عادةً طقوس الزواج، والممارسات الزراعية، وعادات الطعام، مما يساعد علماء الاجتماع على فهم بنية المجتمع وأسس تماسكه. وتتميز هذه النصوص بقدرتها على تقديم تفاصيل دقيقة حول الحياة اليومية، الأمر الذي يتيح دراسة التغيرات التي تطرأ على العادات عبر الزمن، وكيفية تأثرها بالعوامل الخارجية مثل

الاستعمار والعولمة. وتوفر هذه التفاصيل فهماً أعمق للأنماط الثقافية السائدة وكيفية تطورها، مما يعزز من قيمة أدب الرحلة كوثيقة سوسيولوجية.

يتناول سفيان مقنين في كتابه "جزائري في الأندلس" العادات والتقاليد الأندلسية بوصفها جزءاً لا يتجزأ من المشهد الجغرافي والثقافي، حيث ينسجها ببراعة داخل نسج رحلته. ولا يقف عند حدود وصف الأماكن والمعالم، بل يغوص في تفاصيل الحياة اليومية للناس، ليقدم صورة متكاملة عن المجتمع الأندلسي في شكله وتنوعه. كما يُظهر مقنين براعة خاصة في رصد تلك العادات التي تبدو كأنها استمرارية لزمانٍ قديم، كأنها بقايا من روح الأندلس الإسلامية التي ما زالت حية في سلوكيات الناس وتصرفاتهم. في هذا السياق، ينقل للقراء طقوساً مختلفة، من احتفالاتهم وأساليهم في الضيافة، إلى تفاصيل حياتهم البسيطة مثل أساليبهم في الأكل والشرب، وفنونهم في الزراعة والحرف: «يبدو لي أن المرء حين يزور غرناطة إنما يسترجع قطعاً من ذاته أو يعود إلى مكان ما نسبه بداخله منذ مدة. إن أي عربي يتحول في غرناطة اليوم إنما يؤثث ذاكرته التاريخية التي اختزنت العديد من القصص حول الفردوس المفقود، فيرى ويشاهد ويلمس ويستنشق ذلك العبق الذي يجعله ماشياً متشياً وهو يتحول في حي البيازين تاركاً لرجليه حرية التجلي، بدل المشي في أزقة ضيقة تفودك إلى أعلى نقطة في الحي وأجمل إطلالة ممكنة على قصر الحمراء المهيب»¹⁸.

عبر سرده، يُحاول مقنين الربط بين تلك العادات والتقاليد وبين الإرث التاريخي للأندلس، حيث يرى فيها استمرارية لثقافة عريقة لم تنقطع تماماً رغم مرور القرون. في حديثه عن طقوس الضيافة، مثلاً، يستدعي مشاهد من حفاوة استقبال الناس في الأندلس للغرباء، وهي خصلة ترتبط بشكل وثيق بروح الثقافة العربية والإسلامية التي ازدهرت في تلك الأرض. إذ يُظهر مقنين كيف أن تلك العادات تعكس صورة منفتحة ومضيافة للمجتمع، وكيف أنها تحمل في طياتها رغبة في الحفاظ على تراثٍ يوشك على التلاشي. وفي خضم ذلك الوصف أيضاً يتناول عادات الأندلسيين في تناول الطعام، مشيراً إلى التأثيرات المتنوعة التي تجمع بين تقاليد عربية، بربرية، وإسبانية، مما يجعل من المطبخ الأندلسي تعبيراً آخر عن تلاقي الثقافات وتعايشها.

لا يتوقف الأمر عند الجانب الاجتماعي، بل يمتد إلى الطقوس الثقافية والدينية التي تُبرز عمق التقاليد الأندلسية. يُبرز مقنين كيف أن بعض الطقوس الدينية، سواء في

الأعياد أو المناسبات، تحمل ملامح من الموروث الإسلامي، حتى وإن تمزجت مع عناصر من المسيحية أو الثقافة الإسبانية المعاصرة. هذه الطقوس، التي تُمارس في فضاءات معينة كالمساجد أو الساحات العامة، تُعيد للمكان ذاكرته التاريخية وتمنحه بُعداً روحياً. يتجلى ذلك في وصفه لاحتفالات معينة، حيث تختلط الأهازيج والرقصات بأجواء من الحنين والتوق إلى ماضي مشترك، وكأن المجتمع يسعى عبر هذه الطقوس إلى إعادة إحياء جزءٍ من ذاته.

وفي سياق رصدته للتقاليد الفنية، يضع مقنين بين أيدي القراء صورة حيّة للتراث الموسيقي الأندلسي، الذي يظهر كمرآة تعكس تفاعل الثقافات المختلفة. يُظهر كيف أن الموسيقى والرقص، بما فيها الفلامنكو، ليست مجرد فنونٍ عابرة، بل هي موروثات تحمل في نغماتها وإيقاعاتها بقايا من حضارة مزدهرة. يتعمق في وصفه لهذه الفنون بوصفها لغةً تواصلية بين الماضي والحاضر، حيث تلتقي الألحان العربية والإسلامية مع التعبيرات الإسبانية لتشكل سيمفونية ثقافية فريدة. في هذا الوصف، يُبرز مقنين كيف أن التقاليد الفنية تحمل في ذاتها شفراتٍ تاريخية، تروي حكاية اندماج حضاري ومقاومة للنسيان.

يُعبّر مقنين من خلال وصفه للعادات والتقاليد الأندلسية عن نظرة تتجاوز السطحية، حيث يلتقط تفاصيلها بعين الراوي المُعجب والمستفهم. فالأندلس بالنسبة له ليست مجرد مكان جغرافي، بل هي كيان ثقافي وروحي متكامل، تعبر عادات وتقاليد أهلها عن هوية مركبة ومعقدة، هوية تُعانق فيها الأصول الثقافية والدينية. وهكذا، تصبح العادات والتقاليد في كتابه بمثابة جسرٍ يربط بين ماضي الأندلس العربي الإسلامي وحاضرها الأوروبي، في تجربة سردية تجعل من "جزائري في الأندلس" ليس مجرد رحلة في المكان، بل رحلة في عمق الإنسان وثقافته.

• اللباس:

يعد توثيق الرحالة لأزياء المجتمعات المختلفة مصدراً غنياً لفهم الرموز الثقافية والدلالات الاجتماعية المرتبطة باللباس. إذ يصف الرحالة في نصوصهم تفاصيل الملابس التقليدية، والأقمشة المستخدمة، والألوان، والرموز الزخرفية، مما يتيح لعلماء الاجتماع إمكانية تحليل البنية الاجتماعية والاقتصادية لتلك المجتمعات. ويمثل اللباس جزءاً مهماً من الهوية الثقافية والفردية، وبتحليل الكيفية التي يعبر بها الناس عن أنفسهم من خلال

الملابس، يمكن استنباط قيمهم وتصوراتهم الاجتماعية. كما يعكس اللباس تفاعل المجتمعات مع التغيرات الاقتصادية والسياسية، ومدى تأثير القوى الخارجية على الأنماط الثقافية المحلية.

يُخصص سفيان مقنين في كتابه "جزائري في الأندلس" مساحةً مهمة للحديث عن اللباس، مُعتبراً إياه جزءاً من التراث الثقافي الذي يحمل في طياته معاني متعددة، فهو ليس مجرد غطاء للجسد، بل لغة تعبيرية تُعبر عن الهوية والتاريخ والتفاعل بين الثقافات. ينظر مقنين إلى الأزياء الأندلسية بوصفها انعكاساً لتاريخ معقد شهد تداخلات ثقافية متنوعة، حيث تلتقي فيها التأثيرات الإسلامية مع المسيحية، وتتجاوز فيها الألوان والنقوش الشرقية مع الطرز الأوروبية. في هذا السياق، يُصور اللباس في الأندلس كجزءٍ من المنظر الثقافي الذي يصادفه الرحالة، وكأنه قطعة فنية تُكمل اللوحة العامة للمكان وتمنحه هويةً مميزة.

في وصفه للملابس التقليدية، يُسلط مقنين الضوء على تفاصيل دقيقة تُبرز الجمال والخصوصية في الأزياء الأندلسية. يتحدث عن الأقمشة الفاخرة المستخدمة في الخياطة، مثل الحرير والكتان، وكيف تُنسج بمهارة تعكس الحرفية العالية للأندلسيين. يشير إلى تأثير الثقافة الإسلامية في الألبسة التقليدية، خاصةً في استخدام الألوان الزاهية والتطريزات الذهبية، التي تُضفي على اللباس طابعاً فخماً. يصف أيضاً العباءات والجلابيب التي ترتدها النساء، وكيف تتسم بالاحتشام والذوق الرفيع في آنٍ واحد، مما يعكس بقايا من التأثير الإسلامي العميق. ومن خلال هذا الوصف، يخلق مقنين ارتباطاً بين اللباس والهوية، حيث يُشير إلى أن هذه الملابس ليست مجرد أزياء، بل هي رموز لثقافة عريقة تتجلى في كل قطعة تُرتدى.

لا يغفل مقنين عن تناول التغيرات التي طرأت على اللباس الأندلسي عبر الزمن، مُوضحاً كيف أن هذه الأزياء قد تأثرت بالحدثة وبالثقافات المختلفة التي مرت على الأندلس. يتناول التباين الواضح بين الملابس التقليدية والحديثة، وكيف أن هذا التباين يعكس صراعاً بين الحفاظ على التراث ومجاراة العصر. يلاحظ، مثلاً، كيف أن بعض الأندلسيين لا يزالون يرتدون الأزياء التقليدية في المناسبات الدينية والاجتماعية كوسيلة للحفاظ على الهوية الثقافية، بينما تظهر الملابس الحديثة في الحياة اليومية كتعبير عن الاندماج في

العالم المعاصر. يُظهر هذا التغيير في الأزياء تحولاً في نظرة المجتمع إلى ذاته وإلى موروته، حيث يصبح اللباس وسيلة للتفاوض بين الماضي والحاضر.

وفي تناوله للباس كجزء من التراث الفني، يشير مقنين إلى الأزياء في المناسبات الاحتفالية، مثل الأعراس والمهرجانات، حيث يتجلى فيها ذوق فني يجمع بين الأناقة والبساطة. يصف الفساتين المطرزة والأثواب المزركشة التي تُرتدى في هذه المناسبات، وكيف تُضفي على المشهد جواً من البهجة والاحتفال. يبرز في هذا السياق تأثير الفن الأندلسي على اللباس، وكيف أن هذه الأزياء تُشبه اللوحات الفنية بما تحتويه من زخارف وتطريزات دقيقة. يربط مقنين بين هذه الملابس وبين التراث الموسيقي والفني، معتبراً إياها جزءاً من المشهد الثقافي العام الذي يجمع بين الصوت والصورة، بين الإيقاع واللون.

• منطق التفكير:

يتيح أدب الرحلة أيضاً فهماً معمقاً لمنطق التفكير السائد في المجتمعات المختلفة. فمن خلال توثيق الآراء والمعتقدات والفلسفات التي يتبناها الأفراد والجماعات، يمكن تحليل الطرق التي يتم بها تشكيل الأفكار والقيم الاجتماعية. ويبرز أدب الرحلة أيضاً تأثير التعليم والمعرفة على المجتمعات، وكيفية انتشار الأفكار وتبادلها بين الثقافات المختلفة. ويعكس هذا التفاعل مدى انفتاح المجتمعات على التأثيرات الخارجية وقدرتها على التكيف مع الأفكار الجديدة، مما يساهم في تشكيل الهوية الثقافية والتطور الاجتماعي.

يُبرز سفيان مقنين في "جزائري في الأندلس" منطق التفكير الأندلسي باعتباره نتاجاً لتاريخ طويل من التفاعل بين مختلف الثقافات والحضارات. بالنسبة له، فإن منطق التفكير في الأندلس لا يمكن فهمه بمعزل عن ماضيها المتشابك، حيث تداخلت الفلسفة العربية الإسلامية مع الفكر المسيحي والأوروبي، لتشكيل رؤية فريدة للحياة والعالم. يلتقط مقنين هذا التداخل في تفاصيل رحلته، حيث يصف كيف يتجسد هذا المنطق في طريقة تفكير الأندلسيين وفي نظرتهم إلى أنفسهم وإلى الآخر. إنهم يحملون في وعيمهم تراثاً متعددًا ومتنوعاً، جعل من تفكيرهم نسيجاً من التقاليد القديمة والحدائق المعاصرة.

ويلاحظ مقنين كيف أن هذا التفكير الأندلسي يتسم بطابع منفتح وقابل للتفاعل مع الآخر، فيمتزج فيه العقل بالعاطفة، ويتداخل فيه الديني بالعلمي. يظهر هذا المنطق في الحياة اليومية للناس، في طرق تعاملهم مع التحديات والظروف المحيطة. فهم يميلون إلى

مبدأ التعايش وقبول التنوع، نتيجةً للتاريخ الطويل الذي عاشته الأندلس كمنطقة شهدت تلاقي الثقافات والحضارات. يبرز ذلك في قدرة الأندلسيين على استيعاب تأثيرات خارجية متعددة، وتكييفها مع خصوصيتهم الثقافية. يستشهد مقنين بمواقف معينة، مثل الطريقة التي يُمارسون بها شعائرهم الدينية أو يُعبّرون بها عن انتمائهم، ليُظهر كيف أنهم يجمعون بين الأصالة والانفتاح، وكيف أن تفكيرهم يميل إلى البحث عن نقاط الالتقاء بدل التصادم. في تناوله لمنطق التفكير هذا، يتطرق مقنين إلى الطريقة التي ينظر بها الأندلسيون إلى الزمن والتاريخ. فهم، كما يصورهم، يحملون وعياً عميقاً بتاريخهم المليء بالتعقيدات، وهو وعي لا يسعى إلى محو الماضي أو تجاهله، بل إلى التصالح معه وفهمه. يرى مقنين أن هذا التفكير التاريخي يظهر في تقديرهم للموروث الثقافي والحضاري، وفي حرصهم على إحياء الطقوس والتقاليد التي ترمز إلى هويتهم. يدركون أن تاريخهم لم يكن سلساً، بل شهد مراحل من الازدهار والانحيار، ومن هنا يتولد لديهم إدراك بأن الهوية ليست شيئاً جامداً، بل هي في حالة تشكّل وتحوّل مستمرين. يُعبر هذا التفكير عن نضج وعمق، حيث يتعامل الأندلسيون مع ماضيهم كجزء من كينونتهم، وليس كعبء يثقل حاضريهم.

وفي جانب آخر، يُبرز مقنين كيف أن منطق التفكير الأندلسي يتجسد في النظرة إلى الطبيعة والبيئة. يُلاحظ كيف أن الأندلسيين يُظهرون حساً عميقاً بالانسجام مع محيطهم الطبيعي، وهذا ما يتجلى في نمط حياتهم وفي أساليبهم التقليدية في الزراعة والبناء. يظهر ذلك في تعاملهم مع الأرض والماء، حيث يُمارسون نشاطاتهم الزراعية بحرص واهتمام، كأنهم يستمدون من الطبيعة فلسفة خاصة تعلّمهم الصبر والاعتدال. يرصد مقنين كيف أن هذا التفكير البيئي يحمل بين طياته بقايا من التأثير الإسلامي الذي كان يُؤلي للطبيعة مكانة روحية، فتصبح العلاقة معها علاقة احترام واهتمام. يُجسد الأندلسيون في هذا السياق تفكيراً يميل إلى الاستدامة والعيش بتناغم مع العالم الطبيعي.

ختاماً لما تم استعراضه سابقاً، يمكن القول إن أدب الرحلة يمثل ظاهرة أدبية وسوسيولوجية تتقاطع فيها الأدوات النقدية المعاصرة مع الرؤى السوسيولوجية لفهم أعمق للإنسان والمجتمع. وتوفر هذه النصوص مجالا خصبا للتأمل والنقد، مما يتيح للقراء والباحثين على حد سواء فرصة للتفاعل مع تعقيدات الوجود الإنساني في سياق تنقلاته وتحولاته المستمرة. وقد رأينا من خلال التحليل أن أدب الرحلة نوع غني يتداخل مع العديد

من العلوم والمجالات الأخرى. فهو يعزز علم الجغرافيا من خلال توثيق المعلومات الجغرافية عن الأماكن المستكشفة، بما في ذلك التضاريس والمناخ والموارد الطبيعية. بالإضافة إلى ذلك، يقدم سجلات تاريخية قيمة، حيث يوثق مختلف الأحداث الراهنة، مما يضيف عمقاً إلى فهمنا للتاريخ والعلاقات بين الشعوب المختلفة. وعلى الصعيد الفلسفي، يثير هذا الأدب تساؤلات حول الوجود والهوية والتجربة الإنسانية، عاكساً للمتلقي نظرة المسافرين الرحالة إلى الحياة والمجتمعات المختلفة. كما أنه يتضمن تأملات دينية وتجارب روحية في الأماكن المقدسة، موفراً رؤى حول الممارسات والتقاليد الدينية المتنوعة. ومن ناحية السياحة، يروج أدب الرحلة للوجهات السياحية من خلال تقديم وصف مشوق للأماكن والأحداث، ما يساعد السياح في التعرف على الوجهات الجديدة واستكشاف الثقافات المختلفة. وأخيراً، يساهم هذا الأدب في فهم البيئات الطبيعية والأنظمة البيئية المختلفة، مما يعزز الاهتمام بالبيئة والحفاظ عليها.

خاتمة:

وصلت رحلة هذا البحث إلى محطتها الأخيرة وفي ختامها نسجل ما يلي:

*- يصور مقنن الأندلس ككيان حي يتفاعل فيه المكان مع تاريخ وثقافة السكان، لتصبح الجغرافيا جزءاً من هوية المجتمع.

* يعكس الجانب الأنثروبولوجي في الكتاب كيفية تفاعل الأندلسيين مع محيطهم، حيث تتداخل العادات والتقاليد مع الجغرافيا لتشكل منظومة ثقافية متكاملة.

*- الملابس التقليدية في الأندلس تُعد رمزاً جغرافياً وثقافياً، إذ يعبر نوع الأقمشة والألوان والزخارف عن المناخ والطبيعة والبيئة المحيطة.

*- العادات الغذائية والاحتفالات الموسمية مرتبطة بالمواسم الزراعية والمناخ، مما يعكس تأثير الجغرافيا على الممارسات اليومية للسكان.

*- يبدي الأندلسيون تفكيراً بيئياً، يتجلى في طريقة بناء المنازل وتوزيع القرى والمدن، بما يتناسب مع البيئة والمناخ، مُظهرين انسجاماً مع الطبيعة.

*- يُظهر الكتاب كيف أن الجغرافيا تُسهم في تشكيل الهوية، حيث يرتبط منطق التفكير الأندلسي بالمكان، ما يجعل من الجغرافيا عنصراً فاعلاً في حياة الناس.

*- يؤكد مقنن على أن الحضارة تتكون من تفاعل الإنسان مع محيطه، مشيراً إلى أن الأندلس هي مثال حي على هذا التفاعل المستمر بين الجغرافيا والثقافة.
*- الهوامش والإحالات:

- ¹ شوقي ضيف: الرحلات، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط4، 1987، ص5.
- ² صالح جديد: "أدب الرحلة جسر للتواصل الحضاري والتعدد الثقافي قراءة في رحلات القدامى والمحدثين"، مجلة مقاربات، جامعة الجلفة، مج2، ع28، 2017، ص79.
- ³ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر، ط2، 2002، ص26.
- ⁴ عبد النور جيور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1979، ص316.
- ⁵ شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي التجسّس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، شركة الأمل للطباعة والنشر، مصر، د.ط، 2002، ص ص68.69.
- ⁶ مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص17.
- ⁷ طيب بوقرط: "أدب الرحلة بين محوري التموقع والتوقع من منظور النقد الأدبي قراءة في الإشكالات والأفاق"، مجلة تاريخ العلوم، جامعة الجلفة، الجزائر، مج3، ع6، يناير 2017، ص169.
- ⁸ حشلافي لخضر، جميلة روباش: "الأخر في الرحلات المغربية"، مجلة آفاق للعلوم، جامعة الجلفة، ج1، ع8، جوان 2017، ص1.
- ⁹ نصيرة بحيري، نورية هاني: "أدب الرحلة سؤال الأدبية وإشكالية الانتماء"، مجلة الموروث، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، مج9، ع2، ديسمبر 2021، ص285.
- ¹⁰ حسن أبو سمور، علي غانم: المدخل إلى علم الجغرافيا الطبيعية، دار صفاء، الأردن، ط1، 1998، ص1.
- ¹¹ محمد محمود محمددين: التراث الجغرافي الإسلامي، دار العلوم، المملكة العربية السعودية، ط3، 1999، ص17.
- ¹² شوقي ضيف: الرحلات، ص ص11، 12.
- ¹³ المرجع نفسه، ص14.
- ¹⁴ سفيان مقنن: جزائري في الأندلس، ص41.

¹⁵ سفيان مقنين: جزائري في الأندلس، ص 161.¹⁶ نوال عبد الرحمان الشوايكة: أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، دار المامون، الأردن، ط 1، 2008، ص 188.¹⁷ جون سكوت: علم الاجتماع المفاهيم الأساسية، تر: محمد عثمان، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، لبنان، ط 1، 2009، ص 419.¹⁸ سفيان مقنين: جزائري في الأندلس، ص 48.***- قائمة المصادر والمراجع:**

1. حسن أبو سمور، علي غانم: المدخل إلى علم الجغرافيا الطبيعية، دار صفاء، الأردن، ط 1، 1998، ص 1.
2. حشلافي لخضر، جميلة روباش: "الآخر في الرحلات المغربية"، مجلة آفاق للعلوم، جامعة الجلفة، ج 1، غ 8، جوان 2017.
3. سفيان مقنين: جزائري في الأندلس،
4. شوقي ضيف: الرحلات، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 4، 1987.
5. صالح جديد: "أدب الرحلة جسر للتواصل الحضاري والتعدد الثقافي قراءة في رحلات القدامى والمحدثين"، مجلة مقاربات، جامعة الجلفة، مج 2، ع 28، 2017.
6. فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، مصر، ط 2، 2002.
7. شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي التجسّس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، شركة الأمل للطباعة والنشر، مصر، د.ط، 2002.
8. طيب بوقرط: "أدب الرحلة بين محوري التوقع والتوقع من منظور النقد الأدبي قراءة في الإشكالات والآفاق"، مجلة تاريخ العلوم، جامعة الجلفة، الجزائر، مج 3، ع 6، يناير 2017.
9. مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط 2، 198.
10. محمد محمود محمددين: التراث الجغرافي الإسلامي، دار العلوم، المملكة العربية السعودية، ط 3، 1999.

-
11. عبد النور جبور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1979.
12. نصيرة بحيري، نورية هاني: "أدب الرحلة سؤال الأدبية وإشكالية الانتماء"، مجلة الموروث، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، مج9، ع2، ديسمبر 2021.